الباب الثانى
حياتنا الجامعية

حياتنا الجامعية

أساسها بحث حر طليق، ودرس متعمق متخصص، يفتح أبوابه للعلاقات الثقافية على اختلافها، يأخذ عنها، ويضيف إليها ما يضيف، ولنا حياة جامعية قديمة مَثَّلها الأزهر فيما يزيد على عشرة قرون، وقد أنشئت على غراره جامعات أخرى، كالسربون فى فرنسا، وإكسفورد فى إنجلترا. وازدهر البحث الجامعى فى الأزهر، يوم أن ازدهرت الحضارة الإسلامية وكانت رائدة، ثم توقف السير عدة قرون، أغلق الأزهر فيها الباب على نفسه، ووقف عند تراث الماضى، ولم يتابع النهضة العلمية الحديثة.

وكان لابد من التطوير، وقد أشرنا إلى ذلك فى فصول سابقة، وخطا محمد على الخطوة الأولى فى أوائل القرن الماضى، وأنشأ «مدرسة الطب»، ومدرسة «المهندسخانة». على غرار المدارس العلمية الحديثة، وأسست بعدهما فى الربع الأخير من القرن الماضى معاهد عالية أخرى ، كمدرسة «دار العلوم» ومدرسة «المعلمين العليا» ومدرسة «الحقوق» إلا أن هذه كلها كانت مدارس مهنية لم تتسم بسمات الدرس الجامعى الطليق، فتحت أعينها حقا على الفكر العربى، ولكنها لم تهدف إلى بحث عميق، ودرس متخصص، يمكن أن يؤدى إلى إضافات علمية جديدة.

وفى أوائل القرن العشرين، شئنا أن نضع اللبنة الأولى فى بنيان التعليم الجامعى الحديث، فأنشأنا «الجامعة المصرية القديمة» التى أردنا أن تربط فيها الحاضر بالماضى، وأن نهتدى بهدى كبار بعض العلماء الغربيين، وكانت

ولا شك خطوة على الطريق، ومن مزاياها أنها كانت جامعة أهلية، انبعثت من رغبة الشعب، وعبرت عن ميله إلى التطوير والتجديد، وقد قصرت جهودها على ما يشبه «كلية الآداب» فى جامعاتنا المعاصرة، وخرجت الرعيل الأول الذى حمل راية البحث الجامعى الحديث.

وحلّت محلها فى العقد الثالث من هذا القرن «جامعة فؤاد الأول» التى وسّعت نطاق البحث الجامعى، وأنشأت أربع كليات هى: «الطب» التى ورثت مدرسة الطب القديمة «والآداب»، التى ورثت الجامعة المصرية القديمة، «والحقوق» التى حلت محل «مدرسة الحقوق السلطانية» والعلوم التى حلت محل «مدرسة المعلمين العليا» وكل ذلك فى نهج علمى حديث، ورغبة أكيدة فى الإسهام فى ميدان البحث والابتكار المعاصر، ومن حسن حظ هذه الجامعة الناشئة أنه قام على أمرها روّاد آمنوا بالرسالة الجامعية الحقة، ونهلوا من حياض العلم الحديث ما وسعهم، واستطاعوا أن يضيفوا إليها قِيَما لها وزنها، فأكدوا حيوية البحث بكل قواهم، وعززوا استقلال الجامعة ما أمكنهم، وآمنوا إيمانًا جازمًا بأن العلم لا وطن له، فاستقدموا كبار العلماء والمتخصصين، دون تقيد بجنس أو وطن، واستجاب المسئولون لطلباتهم وتوجيهاتهم، وحظيت الجامعة والجامعيون باحترام كبير. واتصلت «جامعة فؤاد الأول» بكثير من الجامعات العالمية الكبرى، وأصبحت محل تقدير ورعاية، ولم تقف عند هذه الكليات الأربع التى أشرنا إليها، بل أضافت إليها فيما بعد كليات أخرى، كالتجارة والزراعة، وحققت فى الربع الثانى من هذا القرن نجاحًا ملحوظًا، وأصبحت الجامعة الأم التى تفرعت منها جامعات أخرى قضى بها النمو السكانى والتطور الحضارى وفى مقدمتها «جامعة الإسكندرية» التى تغذت أساسًا بخريجى جامعة «القاهرة» وعولت عليهم كل التعويل، وقضت نحو عشرين عامًا فى نشأة

وتكوين، حتى استطاعت أن تؤسس مبانيها الخاصة بها، من كليات، ومعامل، ومكتبات، وأن تعد جيلاً جامعيًا للاضطلاع برسالتها، وكم كانت الانتدابات فى البداية حجر عثرة فى طريقها والمسافة بين القاهرة والإسكندرية ليست بالقصيرة، وإذا كانت عاصمتنا الأولى قد اعتدَّت بجامعتها فإن العاصمة الثانية تباهى هى الأخرى بجامعة تحمل اسمها، وتأمل ألا تنقطع الصلة بين الجامعتين، وأن تعقد بينها علاقات متلاحمة، ولا أشك فى أنهما يتعاملان الآن معاملة الند للند، ودعت الحاجة إلى أن تنشأ فى القاهرة جامعة أخرى، لكى تخفف الضغط على الجامعة الأم، وقد تحقق قدر من التنافس والتعاون المجدى والمحمود بين «جامعة القاهرة» و «جامعة عين شمس» ولعل هذا التنافس هو الذى دفع الجامعة الثانية إلى أن تأخذ بشىء من الحيطة والدقة فى اختيار طلابها، وأن تحاول الابتكار والتجديد، ودون أن ندخل فى مقارنة بين هاتين الجامعتين، نستطيع أن نقرر أن فى وجودها معًا خيرًا وبركة.

وكان لابد لصعيد مصر أن يطالب بجامعة خاصة، وقد أجيب إلى رغبته، وقضت جامعة أسيوط نحو خمس عشرة سنة فى البناء والتكوين، وأصبحت اليوم بدورها جامعة مستقلة فى كلياتها ومعاهدها، ومكتباتها ومعاملها.

وليتنا وقفنا عند هذه الجامعات الأربع زمنًا، واكتفينا بإنشاء فروع مكملة لها لسد الحاجة ومواجهة متطلبات النمو السكانى والحضارى، وبذا نمنح أنفسنا وقتًا كافيًا لدرس مشكلة التعليم الجامعى ورسم تخطيط دقيق محكم له، ولكن السياسة والنزعة الإقليمية أقحمتا أنفسهما فى ميدان ما كان أغناه عنهما، وفوجئنا بإنشاء ثمان جامعات إقليمية، لم نفكر فى جد أن نواجهها ولا كيف نعولها، وليست الجامعة مجرد اسم أو إدارة خاصة، بل أنها تتطلب أبنية ومعاهد، وأجهزة وأدوات، وتقوم قبل كل هذا على الأستاذ

الجدير بالدرس الجامعى، وإلا أصبحت أسماء بلا مسميات، وماذا كان يضيرنا لو اكتفينا بإنشاء فروع لبعض كليات جامعة أسيوط مثلا فى الجنوب، أو جامعة الإسكندرية فى الشمال وتركنا هذه الفروع تنمو نموها الطبيعى على مر الزمن، فتصبح كليات مستقلة لها نظمها وقواعدها؟ وبوجه خاص. من المجازفة أن ننشىء كلية عملية دون أن نُعِدّ لها كل ما هى فى حاجة إليه، ونلحظ جميعًا أن أقسامًا كثيرة فى كلياتنا لا تستكمل كادرها الجامعى وآسف أن يكون من بينها ما يعول على المعيد والمدرس المساعد أكثر من تعويله على المدرس والأستاذ، وكنا نتفكه منذ ثلاثين عامًا بعبارة شاعت وهى «الأستاذ تاكسى» ويراد بها تردد الأستاذ بين جامعتى القاهرة وعين شمس بواسطه التاكسى فهل فى وسعنا اليوم أن نتحدث عن «الأستاذ طيارة» لكى يقطع المسافة بين الإسكندرية وأسيوط؟ حقا لقد اضطرت باريس فى السنوات الأخيرة أن تضيف إلى السربون القديمة نحو اثنتى عشرة سربونًا جديدة، لكى تفسح المجال للطلاب والدارسين، وتخفف الضغط عن المعهد القديم، وها نحن أولاء نضيف إلى جامعتى «القاهرة» وعين شمس جامعة ثالثة هى «جامعة الأزهر» لها تخصصاتها وكلياتها. ثم اضطررنا أخيرًا إلى إنشاء جامعة رابعة هى «جامعة حلوان» وقيمة كل جامعة بمن تُكوِّن وتُخرِّج، وما تنتهى إليه من بحث ودرس. وإذا كانت قد طغت علينا فكرة الكم فى التعليم العام فإنا لا نقرها بحال فى التعليم العالى والمتخصص.

وإصطدم التعليم الجامعى بمشكلة أخرى، هى اضطلاع كثيرين من شيوخ الجامعيين بالتدريس فى الجامعات والمعاهد العربية والإفريقية، وتلك رسالة ما أجدرنا أن نضطلع بها، ولكن لم نخطط لها التخطيط الملائم، ولم نفكر فى معاهدنا بقدر ما نبذله من جهد فى المعاهد الأخرى فانقطعت

السلسلة فى دراسات وتخصصات مختلفة، وأصبحت بعض الكليات فى الجامعات العربية أغنى بكبار رجالنا العلميين من كلياتنا المصرية، وحرم هؤلاء الشيوخ فى الغالب من مكتباتهم، فلم تتح لهم فرصة الدرس الهادئ والبحث العميق، وَبعُدَت الشُقّة بين هؤلاء الشيوخ وبين تلاميذهم الذين تركوهم فى مصر، ويحس الجامعيون بذلك الفراغ الموجود فى كلياتنا من نقص الأستاذ والأستاذ المساعد والتعويل بخاصة على المعيد والمدرس المساعد، ولجلال الشيوخ ورعايتهم أثر كبير فى تكوين الأجيال الصاعدة، وهذه خسارة أحسسنا بها إحساسًا واضحًا فى الربع قرن الأخير.

ولا سبيل لأحد أن يقول اليوم بإلغاء جامعة تحمل اسم عاصمة من عواصمنا فى الشمال أو الجنوب، ولكن الذى نملك الدعوة إليه هو أن نصرف النظر بتاتًا عن إنشاء آيّة جامعة جديدة قبل مضى ربع قرن على الأقل، وعلينا – فوق هذا – أن نتريث تريثًا تامًا فى تكوين ما سميناه جامعات بدون مسميات، ومن العبث أن يعد إنشاء جامعة كإنشاء مدرسة ابتدائية أو ثانوية، والكليات العملية هى عقدة العقد ومشكلة المشاكل، فهل نحن فى حاجةالآن فعلاً إلى قيام خمس عشرة كلية للطب فى القطر جميعه؟ وهل فى وسعنا أن نؤدى ذلك على وجهه فى بضع سنوات؟ وما مصير هؤلاء الخريجين؟ ولست فى حاجة أن أقول: إن الأقطار الشقيقة بدأت منذ زمن فى استكمال ما يسد حاجتها حاليًا، وباب الندب والإعارةالن يبقى فسيحًا طويلاً، وبدأت بوادره تؤذن فعلاً بأنه يضيف عامًا بعد عام، وفى كلمة واحدة أستطيع أن أقول: إن سياسة التعليم العالى فى حاجة ماسة إلى إعادة نظر ورسم جديدين، ومن حسن الحظ أن الهيئات النيابية فى مجلس الشعب والشورى بدأت تثير هذه المشكلة، وأبدت على التعليم العالى الجامعى ما أبدت من ملاحظات، والموقف يتطلب دون شك

تكوين لجان متخصصة، تدرس المشكلة فى عمومها، لكى تكشف عن جوانب النقص، وترسم وسائل العلاج والدواء.

وتواجه وزارة التعليم اليوم هذه المشكلة الكبرى مواجهة مباشرة، وأملنا كبير فى أن ترسم للتعليم الجامعى سياسة ثابتة مستقرة تتأنى ما وسعها فى تنفيذ ما تقترحه من خطط ومشروعات. وما أغنانا عن إسراف فى الاسماء والمسميات، والمهم أن نحقق وسائل والأدوات التى تفتح أمامنا أبواب البحث الدقيق العميق الذى نستطيع أن نباهى به فى مجال الفكر العالمى.

* * *

كلية الآداب

عدت من بعثتى عام خمسة وثلاثين، بعد أن قضيت فيها خمس سنوات بعيدًا عن الأهل والوطن، ولم يكن يصلنى إلا بعض الصحف المتقطعة، والخطابات المتبادلة، وعرض على أن أعود إلى الوطن مرة أثناء البعثة، فآثرت أن أتم الرحلة حتى النهاية، ووقفت نفسى طوال هذه المدة على البحث والدرس، ويوم أن عدت إلى الوطن لم يكن لى هدف سواهما، ولم أتردد فى أن أقبل ما عرض على السيد وزير المعارف حينذاك من التدريس فى كلية الآداب، لأنى أمّلت أن أجد فيها الجو الذى وجدته فى (السربون) وأن أساهم فى ايجاد هذا الجو وتكوينه.

وكان لابد لى أن أزور أستاذ الجيل، ورئيس الجامعة حينذاك، وهو المرحوم أحمد لطفى السيد، فلقيته لأول مرة وكأنى كنت أعرفه قبل ذلك بسنين، ولقاءات لطفى السيد محببة لدى كان من سعدوا بها، رحّب بى، وأبى إلا أن أشرب القهوة، وشاء أن أصحبها بسيجارة قدمها لى فاعتذرت عنها، وقال لى: «لقد ذكرتنى بزيارتى لجمال الدين الأفغانى فى «إستانبول»، فقد سعيت إليه لكى أتتلمذ عليه، وحرص فى مقابلتى على أن يقدم لى هو الآخر سيجارة، فاعتذرت كما صنعت أنت الآن، ولكنه قال لى: دَخِّن ودَخِّن دائمًا، والذى حدث أنى استمررت أدَخِّن. «وكان لقائى بلطفى السيد فاتحة لصلة لم تنقطع، إن فى الجامعة أو خارجها، إلى أن لقى ربه.

ولم تكن كلية الآداب غريبة على؛ لأنها كانت عامرة بعدد من الأساتذة

والأصدقاء الذين عرفتهم من قبل، وعلى رأسهم طه حسين، ومصطفى عبد الرازق، وأحمد أمين، وأمين الخولى، وعبدالوهاب عزام. ومن حسن حظ هذه الكلية أنه كان على رأسها «طه حسين» وهو جامعى قديم، يُقدر التقاليد الجامعية، ويحرص على تثبيتها، ومن أخص ما عنى به أمور ثلاثة:

أولها: الأخذ بمبدأ التعاون الثقافى العالمى، فالعلم لا وطن له، والعلماء يجب أن يتعاونوا ويتضافروا، بصرف النظر عن جنسياتهم وأوطانهم، ففتح الباب ما وسعه للأساتذة الزائرين والدائمين كيفما كانت جنسياتهم، وكان فيها - إلى جانب الأساتذة المصريين - أساتذة من بلاد مختلفة بين عربية وأجنبية، وبخاصة فى الأقسام التى تتطلب عونًا خارجيًا، كأقسام اللغات الأجنبية، من فرنسية، وإنجليزية. فكان التدريس فى هذه الأقسام على أيدى أساتذة من أبناء هذه اللغات نفسها، الذين يعرفون كيف يقدمونها لطلابهم.

وقد قامت هذه الكلية على عدة أقسام، ففيها أقسام للغات، على رأسها قسم اللغة العربية، وإلى جانبه «قسم اللغة الإنجليزية» و «قسم اللغة الفرنسية». وإلى جانب أقسام اللغات، قامت فيها أقسام أخرى للعلوم الإنسانية، فكان فيها قسم للتاريخ وآخر للجغرافيا، وثالث للفلسفة والاجتماع وعلم النفس، وما كان أشبه هذه الأقسام بنظائرها فى كليات الآداب فى البلاد التى استكملت هيئات التدريس على مختلف مراتبها، فقام قسم اللغة الإنجليزية مثلاً فى البداية على أساتذة أختبروا من بين كبار الأساتذة الإنجليز، وكان قسم اللغة الفرنسية يجمع بين الفرنسى والبلجيكى، ولم يكن حظ قسم الفلسفة بأقل من أقسام أخرى، فى من دُعى إليه من كبار الأساتذة الأجانب، إنجليز أو فرنسيين، وأشهد أنى لم أشعر بغربة فى هذا الجو الجديد الذى يكاد يلتقى فى مناهجه ورجاله مع

ما ألفت فى السربون، أو فى جامعات أوربية أخرى.

وكان من حظى أن أصبحت عضوًا فى هيئة التدريس بقسم الفلسفة، فعملت إلى جانب يوسف كرم مؤرخ الفلسفة، وأبو العلا عفيفى أستاذ المنطق، ومصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية، وإلى جانب هؤلاء أجانب بين فرنسيين وبريطانيين، فنعمت زمنًا بصحبة أستاذ سابق لى هو الأستاذ أندريه لالاند كما نعمت بصحبة زملاء آخرين، جو كله صفاء وعطاء وحب وتقدير، واستطاع أن يُكون أجيالاً كان لها شأنها فى البحث والدرس الفلسفى منذ العقد الرابع إلى اليوم، ويسعدنى أنه كان من بين تلاميذى من أصبح من شيوخ الفلاسفة أمثال: محمد عثمان نجاتى، وعبد الرحمن بدوى الذى ملأ الشرق والغرب بكتاباته ومؤلفاته.

ثانيًا: بإرسال بعوث من المصريين لاستكمال دراستهم وتخصصهم شرقًا وغربًا، فبعث من بعث إلى فرنسا، كما بعث إلى ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا، وحظيت الكلية بدفعات كبيرة منهم، أصبحوا أساتذة المستقبل. ولا أظن أن كلية أخرى توسعت فى هذا توسع «طه حسين» فى كلية الآداب، وهى سياسة حكيمة ما أجدرنا أن نستمسك بها، وأن نمكن شبابنا من الإقامة زمنًا فى تلك البيئات الأوربية والأمريكية، لكى ينهل من حياضها ، ويفيد من تجاربها، ويُرَبَّى على منهج البحث والتجربة الدقيقة.

وعنى **ثالثًا:** عناية خاصة بالدراسات الكلاسيكية، وله فيها تجربة شخصية ورأى أن الدرس المتعمق يستلزم إلمامًا ببعض اللغات القديمة: كاليونانية واللاتينية، فحرص على أن تُعنى أقسام فى كلية الآداب بهاتين اللغتين، كما ربط اللغات الشرقية القديمة، كالسريانية والعبرية بقسم اللغة العربية، وأشهد أنه كان فى هذه الأقسام حياة، وكان لها صدى ملحوظٌ، وكم كان ينبغى أن تسير فى طريقها إلى النهاية، ونأسف لأنا نسينا هذا أو

تناسيناه بعد مدة، وأصبحت اللغات القديمة بالنسبة لأبناء كلية الآداب تقريبًا فى خبر كان، ونال اللغات الشرقية ما نالها مع أنها وثيقة الصلة باللغة العربية وفِقْهِها.

ولم يقف «طه حسين» عند الدرس الجامعى، بل اتجه نحو طُلّاب الجامعة أنفسهم، وطريقة تكوينهم، ولاحظ بحق أن برامج الدراسة فى مراحل التعليم العام - وبخاصة فى المرحلة الثانوية - لا تعد الناشئة إعدادًا كافيًا للدرس والبحث الجامعى، ولاحظ بالنسبة للجامعة بعامة أنه لابد من أن يعاد النظر فى سياسة التعليم العام والثانوى بوجه خاص، وسلّم بذلك المرحوم «أحمد نجيب الهلالى»، وهو من رجال وزارة المعارف، قضى فيها زمنًا أكسبه ما أكسبه من خبرة ودراية، ووضع تقريرًا معروفًا بـ «إصلاح التعليم الثانوى» فأدخل مواد لم تكن تُدرَّس فيه من قبل، وأطال مدته بعض الشىء. وسبق للجامعة نفسها أن فكّرت فى تكوين مدارس ثانوية خاصة بها، تشرف عليها وتتابعها، لكىّ يقدم لها الناشئين الذين يغذون كلياتها النظرية والعملية، ومن حسن الحظ أنه لم يؤخذ بهذا الاقتراح، وسَلِمْنا من خلق ألوان متعددة من التعليم العام، والأصل فيه أن يكون إعدادًا موحدًا للمواطن المصرى.

وطلب «نجيب الهلالى» إلى الجامعة أن تمده بالأساتذة لكى يُدرّسوا المواد الجديدة التى أُدخلت على التعليم الثانوى. وسعدت أن عشت فى هذا الجو، وأسهمت فى قسط منه بالنسبة لتعليم المواد الفلسفية، فأخرجت مع المرحوم «يوسف كرم» كتابًا فى تاريخ الفلسفة» يتلاءم مع مرحلة الدراسة الثانوية، وأخرج زميلى المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى كتابًا فى المنطق، والمرحوم الدكتور «أحمد فؤاد الأهوانى» كتابًا فى «علم النفس»، وكان يقوم بتدريس المادة فى المدارس الثانوية، موفدًا من كلية الآداب، كما أوفد

زميل له آخر هو الدكتور «محمد توفيق الطويل». وأريد بكلية الآداب أن تشرف على امتحان الشهادة الثانوية، وأن تشترك فى وضع أسئلتها، وقد أشرفت فعلاً على أوراق امتحانها.

وفى وسعى أن أقرر أنه ترتب على هذا نهضة تعليمية لا بأس بها، وكان الشباب الذى يتقدم إلى الجامعة يبعث على الأمل، ويؤذن بقدرته على متابعة السير، لا سيما وقد استطاعت الجامعة نفسها أن تقدم بعض خريجيها للتدريس فى المدارس الثانوية، وطوال خمسة عشر عامًا استطاعت كلية الآداب أن تتغذى بغذاء أفضل مما كانت تغذى به من قبل، ولكن الإقبال على التعليم والرغبة الزائدة فيه لدى البنين والبنات، خرج بها عن طاقتها، فقدمت للكليات الجامعية فى العقد السادس والسابع من هذا القرن طلابًا ليسوا جميعًا على المستوى الذى يتطلبه الدرس الجامعى، وملئت الفصول والمدرجات فى الكليات النظرية والعملية بأعداد يعزّ تَعَهُّدُها وتغذيتها بالغذاء الملائم، لاسيما ولم يوفر لها التعليم العام ذخيرةً يمكن أن تستعين بها.

ومشكلة التعليم العام فى جملته قائمة، ونحاول أن نعالجها فيما أخذنا به، مما يسمى «التعليم الأساسى» ونرجو أن يحقق أهدافه، ونجحنا أيضًا فى أن نتجه نحو التعليم «الفنى»، ونخفف الضغط على الدرس الجامعى، لكن المدرسة الثانوية لا تزال فى حاجة إلى إعادة نظر، وسبيل تقويمها العودة بالفصل إلى العدد الملائم، وهو ثلاثون تلميذًا أو ما حولها نزولاً أو صعودًا، واختيار المعلم الثانوى اختيارًا يقوم على: الكفاية، والقدوة الحسنة، وحبّ العمل، والإخلاص له، وإعداد الكتب الملائمة علميًا وأدبيًا، وقد شئنا أن نعالج شيئًا من ذلك علاجًا آليًا عن طريق ما سميناه «مكاتب التنسيق» وكم أود أن نعود مرة أخرى إلى اختيار شباب الناشئين لكلياتهم على حسب ميولهم واستعدادهم.

وكان لابد للحياة الجامعية من تقاليد ثابتة، وقد أخذ طه حسين نفسه بذلك، مستهديًا خاصة بالجامعات الفرنسية، ودعا دعوة صادقة إلى إستقلال الجامعة، الذى يحقق لها وحدها حرية اختيار هيئة التدريس على أصول جامعية سليمة، وحرية البحث الطليق الذى لا يخضع لرقابة أو توجيه، ويوفر لها الاعتمادات المالية اللازمة التى تمكنها من أداء رسالتها، وقد بذل طه حسين فى سبيل ذلك ما بذل، ولاقى ما لاقى من اضطهاد وإبعاد عن الحياة الجامعية.

عشت فى كلية الآداب ولها بضع سنين، وكنت أود ألّا يعكر صفو هذه العشرة ما يباعد بينى وبينها، ومررت بتجربة أحب أن أنوه بها، وملخصها أن الأستاذ العميد شاء أن يُفْتَح مجال قسم الفلسفة لبعض الطلبة الأزهريين، ممن حصلوا على الشهادة الثانوية فى المعاهد الأزهرية ونالوا من الدرس الفلسفى قسطًا، ولم تكن مراجعنا العربية فى الدراسات الفلسفية، فى العقد الرابع من هذا القرن، كافية وبخاصة فيما يتصل بالفكر المعاصر، حاولت أن أحبِّب هؤلاء الأزهريين فى تعلم اللغة الفرنسية، ووضعت أمامهم نصوصًا سهلة بدءوا يتعلمونها، وانتهى بهم الأمر، بعد ثلاث سنوات، أن عرفوا قدرًا من اللغة الفرنسية يمكنهم من الاطلاع والقراءة، وإن بقيت لغة الحديث بالفرنسية ضعيفة لديهم. ولا أدَلّ على نجاح هذه التجربة من أن عددًا من هؤلاء الطلاب دخل فى مسابقة أعلنتها وزارة المعارف، لإعداد مدرس اللغة الفرنسية وإرسال مجموعة من شبابنا إلى فرنسا لتجويد لغتهم، وقد نجح غير قليل من هؤلاء الأزهريين فى تلك المسابقة، وما أن عادوا من فرنسا حتى أصبحوا قوّامين على تعليم اللغة الفرنسية فى المدارس الأميرية، وقد تعلمت أنا الفرنسية فى سنهم تقريبًا، والمهم أن توفر الأسباب الكافية لكل من ينشد التعلم، ولعل فى هذه

التجربة ما يهدينا إلى أن الجد والمثابرة كفيلان بأن يصلا بالشباب إلى تعلم ما يرغب فى تعلمه، ونحس اليوم نقصًا ملحوظًا فى تعلم اللغات الأجنبية لدى خريجى المدارس الثانوية، وأصبح عالمنا لا يكتفى لمواطن مثقف أن يقف عند لغته الوطنية.

وهناك تجربة أخرى يعنينى أن أنوه بها، وتتلخص فى أنى حظيت فى بعض فصول قسم الفلسفة بفصل يجمع بين الشباب والشابات فى قسمة عادلة، وأشهد أن هذا الفصل كان من أنجح الفصول فى مراحل التعليم الجامعى التى مررت بها، فقد كان التنافس بين الفتى والفتاة على أشده، ولكنه تنافس جاد صادق يعتمد على الإخاء والمحبة، والأخذ والعطاء، وكان هذا الفصل نموذجًا للسلوك الاجتماعى القويم، والتعاون الفكرى الصادق، وعلاقة طلابه بعضهم ببعض، تلاقوا فى الدرس وتلاقوا خارج الدرس، واشتركت معهم فى بعض الرحلات، فكانت مثالاً للكمال والنقاء والتعاون الصادق، وفى هذا ما يوضح أن اختلاط الشبان والشابات، إن وفق لقيادة حكيمة، أدى إلى نتائج نطمئن إليها.

وقد استحدثت كلية الآداب نهجًا فى البحث والدرس يعد المنهج الجامعى المنشود، ذلك لأنها كانت تعوِّل على أساتذة متخصصين، يعنيهم أن يعرفوا الحقيقة العلمية على وجهها، بعد بحث شامل وتمحيص دقيق. ويحرصون كل الحرص على أن يوضحوا لتلاميذهم منهج البحث العلمى السليم، ويرشدوهم إلى المراجع الأصلية التى ينبغى الرجوع إليها والأخذ عنها، وأشعروهم بأن البحث العلمى المستكمل لا يقنع باللغة الوطنية وحدها، بل يلزم أن تضاف إليها لغة أجنبية أو أكثر، لكى تعالج الحقيقة العلمية فى ضوء كل ما يتصل بها من فكر ودرس، ولا يفوتنى أن أنوه بأن الدرس الجامعى، الذى كنت أضطلع به وأدعو إليه، لم يعول قط على مذكرة

أو كتاب معين، بل كان يحث على قراءة أوسع، ودرس أشمل، بحيث يكون لكل موضوع مراجع خاصة، إنْ فى العربية أو اللغات الأجنبية، وأسعدنى أن اتجه شباب الأمس نحو هذا الهدف، وأن استمسكوا بهذا المنهج وطبقوه بدورهم، ولم يكن الدرس والمحاضرة موقوفين على الأستاذ، بل كان لطلابه نصيب فيهما، فكلفت عددًا غير قليل منهم، كل بموضوع خاص، وقدر له الزمن الذى يلائمه، ويوم أن يكتمل بحثه يسعده أن يعرضه على زملائه، وعلى هذا لم يكن الأستاذ هو الباحث والدارس وحده، بل كان الطلاب يشاركونه فى درسه وبحثه.

وأستطيع أن أقرر أن هذا المنهج قد ربى روح البحث لدى الناشئين، وقد أثمر ثمارًا طيبة فيمن مروا بهذه التجربة وأفادوا منها، ونظرة إلى التأليف الجامعى فى الثلاثينات والأربعينيات، مقرونًا بما ظهر بعد ذلك فى الستينيات والسبعينيات، نلاحظ أن بحوث المرحلة الأولى كانت أنضج وأكمل وأعمق وأدق.

عشت بضع سنوات قريبًا كل القرب من «كلية الآداب»، أتابع درسها، وأشرف على امتحاناتها، وأتعهد خريجيها، ممن يعدون للماچستير أو الدكتوراه، ولكن الحياة النيابية اجتذبتنى فى سن مبكرة، فحرمتنى من جو أَلِفْتُه، ومن حياة أعددت نفسى لها، وبعدت عن كلية الآداب زمنًا، ثم فتح بابها لى فى الثلاثين سنة الأخيرة، عن طريق الأستاذ «غير المتفرغ» وكم كان يُروِّح عن نفسى أن أخرج من جو المشاكل السياسية إلى حياة البحث الحر الطليق، واشتركت فى الدراسات التمهيدية لما بعد الليسانس بضع سنين، وأحسست مع الأسف الشديد - أن طلاب هذه الدراسات يهبطون عامًا بعد عام، إلى درجة أنه كان من بينهم من ينزل من مستوى طلاب السنة الثانية قبل الليسانس، وانتهى بى تقدم السن، وضعف مستوى

الطلاب المستمر، إلى أن أعتذر عن واجب ما كان أحبه إلى نفسى.

ولن أنسى قط أيامًا قضيتها إلى جانب زملاء، أمثال أحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، وأمين الخولى، ونعمت فيها بصحبة «مصطفى عبد الرازق»، تلك النفس الزكية التى كان يأنس إليها الجميع، والحق أن كلية الآداب حققت فى الثلاثين سنة الأولى فى حياتها نهضة، لا أظن أنها جارتها فيها كليات حديثة أخرى، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن هيئة التدريس كانت فعلًا من صفوة الصفوة الذين لم يعرفوا إلا الصدق فى القول والإخلاص فى العمل، وما كانوا يترددون فى أن يضطلعوا بعبء يعين على أداء رسالتهم، ولا أزال أذكر أنه أريد بى يومًا أن أشترك فى مسرحية تعتمد على فلسفة ابن المقفع فى كتاب «كليلة ودمنة»، وكان من بين أبطالها عبد الوهاب عزام وأمين الخولى، وقد رحبوا جميعًا بالفكرة وتهيئوا لتنفيذها وتحقيقا، ولم يمنعهم من ذلك إلا عدوان على استقلال الجامعة فى شخص عميد كلية الآداب ومدير الجامعة نفسه وأستاذه. ومربون هذه هى روحهم وصلاتهم، جديرون بأن يخلقوا بناة المستقبل، ودعاة النهوض والتجديد الصحيح. وما أجدرنا أن نفكر جديًا. وبخاصة الآن - فى سن المعاش بالنسبة للأستاذ الجامعى، لكى نعيد إلى الحياة الجامعية وقارها وقدوتها الصالحة.

هذه هى ذكريات كلية الآداب بجامعة القاهرة طوال خمسين عامًا، وهى تملى علينا دروسا أخصها: أنه ينبغى أن نعود بالدرس الجامعى إلى وضعه القديم الذى يقوم على القراءة المستوعبة والفهم الدقيق، ولا سبيل إلى ذلك إلا لمن أعدوا فى مرحلة التعليم العام إعدادًا يؤهلهم لهذه المهمة.

ونحس بأنا افتقدنا التقاليد الجامعية السليمة تحت ضغط الأعداد الكثيرة التى ملئت بها مدرجات الكليات، وضعف التعليم العام فى أداء

رسالته، ونقص هيئات التدريس نقصًا يكاد يؤدى إلى الفراغ المطلق.

والدرس الجامعى هو السبيل الأقوم لإعداد شباب المستقبل وقياداته، وإذا لم تتوفر له أسبابه فلا سبيل إلى إعداد هذه القيادات، وطغت فكرة الكم على فكرة الكيف فى التعليم العالى والجامعى، كما طغت على التعليم العام فى مراحله المختلفة، ونحن نعيش فى عصر التجويد والتعمق والابتكار، ولابد لنا أن نهيىء شبابنا لأداء هذه الرسالة.

الكليات الأزهرية

قام الدرس الأزهرى - حتى أوائل القرن الحالى - على الحرية المطلقة، والاختيار التام، حرية الشيخ فى تحديد موضوعه، ومكان درسه وزمانه، وتعددت الكراسى والحلقات تبعا لتعدد الشيوخ، أما الاختيار فكان تامًا بالنسبة لطلاب العلم، يتجهون نحو الحلقة التى يريدونها دون فرض أو توجيه، ودون حساب على غياب أو حضور، فكانت الرغبة هى الباعث الحقيقى لمتابعة الدرس والإفادة منه وبقدر ما إتسعت حلقات، ضاقت حلقات أخرى، والتاريخ يذكر حلقة الأستاذ الإمام، أو الشيخ «محمد بخيت» فى الرواق العباسى. ولم يكن ثمة امتحان نقل ولا امتحان شهادة، اللهم إلا الشهادة العالمية التى ماكان يجرؤ طالب على أن يتقدم لها إلا بعد مضى نحو خمس عشرة سنة، وبين الطلاب الأجانب والمصريين عدد غير قليل كان يكفيه أن يحصل على قدر من الدرس والتعلم، دون أن يطمع فى الحصول على الشهادة النهائية، ولم يحرمه هذا من أن يباهى بأنه من طلاب الأزهر وعلمائه.

وقد قام هذا الدرس أساسًا على النصوص وتحليلها ومناقشتها، مختصرة تارة فى صورة متون، أو مفصلة تارة أخرى فى صورة شروح، أو حواشى، أو تقارير، وكثيرًا ما تعددت هذه الشروح وتلك الحواشى على النص الواحد، ومن بين الشيوخ من اشتهر بحواشيه أو بتقاريره. ولقد برّز الشيوخ حقًا فى هذا التحليل اللفظى، وبيان الدلالات المختلفة للفظ

أو جملة أو تعبير، وهذا ما اصطلحوا على أن يسموه «تشقيق الكلام».

وفى دراسة النص هداية وتوجيه، ولكنه ارتباط بالماضى، وبعد عن الحاضر، وحبس للفكر فى دوائر معينة، حتى الاعتراض والاستفسار إنما كان مجرد إعادة لاعتراضات واستفسارات سابقة وأجوبة عليها، وقد عبر عن هذا كله بالعبارتين التقليديتين : «فان قُلت قُلْتُ» وفى كل هذا ما جعل الدرس مجرد تحصيل وجمع، دون إفساح المجال للتفكير الخاص، ووصل التمسك باللفظ إلى حد أن الشيخ إن لم يستقم له النص الذى يعالجه، أجل درسه إلى فرصة أخرى، ويحكون فى هذا حادثة عن المرحوم الشيخ «الإمبابى» المشهور بتقاريره، لا أدرى مدى صحتها وملخصها : أنه كان بصدد تفسير الآية الكريمة : «لقد رضى الله عن المؤمنين» وفى الدرس التالى بدأ بالجملة التالية، وأخذ يحللها على النحو التالى : «إذيبا يبايعونك» وأعرب «إذيبا»: مفعولا لفعل محذوف، فوجه نظره أحد الطلاب إلى صحة القراءة فلم يكن منه إلا أن أغلق ملزمته وأجل درسه.

ولم يكن بد من أن نعيش فى القرن العشرين، وأن نعالج الأمور فى تفتح وإدراك أدق وأعمق، وبدا أنه لابد من النظر فى شئون التعليم بذلك المعهد العتيق ذى التاريخ الطويل، والذى خَرَّجَ رجالاً كان لهم بصمات فى حياتنا الفكرية والثقافية، وإن فاته أن يعد جماهير المتعلمين لحياة العصر الحديث، ويظهر أن الإمام «محمد عبده» كان يرى معالجة الموقف من طريق محاذ للطريق المألوف، وأراد به أن يغذى من طلاب الأزهر على أن يعرض عليهم الدرس والبحث فى صورة أكثر طلاقة وأدق تنظيمًا وأوسع أفقًا، فناصر فكرة إنشاء «مدرسة دار العلوم» فى أخريات القرن الماضى، واتجه فى أوائل هذا القرن نحو فكرة «مدرسة القضاء الشرعى» وما هاتان المدرستان إلا إمتداد للتعليم الأزهرى على أن ينقح ويهذب، ويعرض بلغة

العصر وروحه، وعلى أن تضاف إليه مستحدثات العلم الحديث. ويعزى إلى الأستاذ الإمام أنه قال يومًا : «بقيت فى الأزهر عشر سنوات ثم قضيت بعدها حياتى فى فك القيود القديمة التى غلبت على تفكيرى».

وسارت المدرستان فى طريقهما، وقدر لدار العلوم حياة طويلة مستمرة، واحتفل بعيدها المئوي منذ سنين، وعدلت مناهجها وموادها غير مرة، وهى اليوم كلية من كليات جامعة القاهرة، أما مدرسة القضاء فلم تعمر إلا نحو عشرين عامًا، وقد أشرنا من قبل إلى شىء من تاريخها.

وحاول آخرون أن يواجهوا الموقف من داخل الأزهر نفسه، وفى مقدمتهم المرحوم الشيخ «محمد شاكر» الذى يرجع إليه الفضل فى إنشاء الأقسام النظامية بالأزهر : لم يغلق باب الدرس الحر الطليق فى داخل الأزهر ولكنه أنشأ إلى جانبه درسًا منظمًا فى المعاهد الدينية يختار طلابه ويحاسبون على حضورهم وغيابهم، ويمتحنون فى آخر العام، رجاء أن ينقلوا إلى السنة التالية، وكان لهذه المعاهد مراحل ابتدائية، وثانوية، وعالية لكل مرحلة شهادتها فالابتدائية الأزهرية تقابل الإبتدائية المدرسية، والثانوية الأزهرية تقابل شهادة التعليم الثانوى، والشهادة العالية فى نهاية القسم العالى.

وسارت المعاهد الدينية فى طريقها، وأضافت بعض العلوم الحديثة إلى المواد التقليدية من علوم نقلية : كالفقه والتفسير والحديث، أو علوم لغوية : كالنحو والصرف والبلاغة، أو علوم عقلية : كالتوحيد والمنطق. وانصبت العلوم الحديثة على التاريخ والجغرافيا والكيمياء والحساب والجبر والهندسة.. ونمت المعاهد الدينية وإمتدت إلى كثير من مدننا الكبرى.. ولم يبق مجال فسيح للدرس الأزهرى الحر القديم الذى انصرف عنه طلابه إلى المعاهد النظامية.

وأحس المرحوم الأستاذ (المراغى) أنا بعدنا عن الثقافة القديمة المتعمقة، ورأى أن يعالج هذا عن طريق تخصصات فى كليات تغذى من المعاهد الدينية، وبدأ فيها بكلية الشريعة التى تعنى بدراسة الفقه والتفسير والحديث.. وكانت معهدًا لتخريج القضاة الشرعيين والمحدثين والمفسرين، والتحق بها من حصلوا على الشهادة الثانوية من المعاهد الدينية، ليكملوا دراستهم أربع سنوات، يحصلون بها على شهادة العالمية، وقد عنيت هذه الكلية بعلوم المنقول.

وأسست كلية أخرى تعالج علوم المعقول، وهى كلية «أصول الدين» فكان فيها توحيد وفلسفة ومنطق، واختير لرياستها شيخ جليل، هو المرحوم الأستاذ إبراهيم اللبان، وقد كان للبان رحمه الله بسمته الرقيقة، وعباراته المحببة، التى كثيرا ما حملت محدثيه على الاستجابة لمطالبه.. وشاء أن أسهم فى بعض تخصصات كلية «أصول الدين» ولم أتردد فى أن ألبى رغبته، وقدر لى أن أقضى عدة سنوات فى «قسم الفلسفة والتوحيد مما كان يسمى «تخصص المادة»»، والصلة بين التوحيد والفلسفة وثيقة وإن حاول المتأخرون أن يقطعوها، وأن يقصروا الدرس النظرى على ماسجلوا من متون وشروح وحواش فى علم الكلام.

وأعجبت فعلا بربط التوحيد بالفلسفة، وعددت ذلك تجربة كنت أرجو لها أن تصل القديم بالحديث، وأن يستعيد بها الدرس الفلسفى مكانته فى الأزهر، بعد أن حرم منها عدة قرون. ومما حببنى فى هذه التجربة أنها وقفت على رجال استكملوا درسهم للتراث الإسلامى طوال اثنى عشر عامًا، ثم أخذوا يتعمقون هذا الدرس فى تخصصهم، ويوضحون فى ضوئه ثمار الفكر الإنسانى : قديمه ومتوسطه وحديثه. وحاولت ما استطعت أن أبين لهؤلاء الرجال المتخصصين - وعددهم غير كبير - أن الفلسفة اليونانية ليست

غريبة على الفكر الإسلامى، وأن «أرسطو» عده العرب بحق «المعلم الأول» وأخذوا عنه منطقه وطبيعياته وإلهياته.. أخذوا عنه دون أن يتعبدوا به، فأيدوا من آرائه ما أيدوا، ورفضوا مارفضوا.. وما يقال عن أرسطو فى التاريخ القديم يمكن أن يقال عن مفكرى القرون الوسطى والتاريخ الحديث، فلنا - بل علينا - أن نقف على آرائهم ونظرياتهم، لكى نتابع تطور الفكر الإنسانى فى مراحله المختلفة، ولكى نوازن بين القديم والجديد.

وكم وددت أن يلم طلاب قسم التوحيد والفلسفة بلغة أجنبية، كى تفتح أمامهم الآفاق فيستطيعوا أن يقفوا على آراء مفكرى الغرب مباشرة ودون واسطة.

وإذا كانت كلية أصول الدين لم تفسح صدرها للغة أجنبية، فإنها عالجت هذا النقص من جوانب أخرى، وحرص المرحوم المراغى على أن يربط القديم بالحديث، فبعث بعوثا إلى أوربا لكى يستكملوا الدرس الفلسفى، كان من بينهم رجال أسهموا فى هذا التطوير الجديد، ووضعوا لَبِنات فى تاريخ الفكر المصرى المعاصر : أمثال الدكتور حُبَّ الله، والدكتور محمد البهى، والدكتور محمد ماضى، والدكتور على عبد القادر، ولايفوتنى أن أذكر اسمين آخرين هما المرحوم «غرابة» الذى عجل بالرحيل عن دنيانا، وكنت ألمح فيه ذهنًا وقادًا، وفكرًا متعمقًا، وأبنى عليه آمالاً كبيرة فى عرض الفكر الإسلامى عرضًا منطقيًا سهلاً يستعيد مجده ومنزلته. وأما الآخر فهو المرحوم الدكتور «بيصار» الذى اتجه نحو فلسفة «ابن رشد» وأثبت أن الفيلسوف القرطبى مفترى عليه، وأن فلسفته لا تتعارض مع تعاليم دينه. وتشاء الظروف - بعد محاربة الفلسفة فى معاهدنا الكبرى القديمة أن يصبح الدكتور «بيصار» الفيلسوف شيخًا للأزهر، وأسعدنى أن زاملت بعض هؤلاء الشيوخ الأعلام، وكنت أعتقد أن

فى وسع كلية «أصول الدين» أن تمد العالم الإسلامى بعلماء ومفكرين يستطيعون أن يواجهوا متطلبات العصر وحاجاته.

وعرفت الأستاذ إبراهيم حمروش فى كلية اللغة العربية، قبل أن أزامله فى «مجمع اللغة العربية». فقد طلب إلى هو الآخر أن ألقى بعض دروس فى الأخلاق للمتخصصين من طلبة كليته - وكان أغلبهم أسَنّ منى - ومع أسفى الشديد لم أستمتع بهذه الصحبة زمنًا طويلًا، وقد ذكرنى بها أخيرًا المفتى الأسبق الشيخ «محمد خاطر» الذى كان يباهى بأنه كان أحد تلاميذى. وأعجبنى من الشيخ «حمروش» صراحته، ونقده اللاذع، وعلمه الوثيق بأصول العربية وقواعدها، ومن حسن حظى أنى زاملته فى «مجمع اللغة العربية»، منذ عام ست وأربعين إلى أن لقى ربه، وكان أحد شيوخ ثلاثة من مؤسسى هذا المجمع، وزميلاه هما : الشيخ «محمد الخضر حسين» والشيخ «حسين والى» وللشيخ «حمروش» تاريخ حافل فى «مجمع اللغة العربية»، ويكفيه أنه تعهد «معجم ألفاظ القرآن» عدة سنين، وأشرف على أجزائه الثلاثة الأولى.

واشتركت زمنًا فى كلية «اللغة العربية» وعنيت فيها بجانب المعقول، فعرضت لبعض الدراسات الأخلاقية، تنويهًا بكبار الأخلاقيين من المسلمين، وكبار الأخلاقيين فى الفكر الإنسانى قديمه ومتوسطه وحديثه، وحرصت فى صلتى بهؤلاء الطلاب الرجال على أن أفتح أمامهم أبواب البحث، وأن أدع لهم أن يسلكوا الطريق، وناشدتهم أن يَقرءُوا، وأن يناقشوا وأن يعلقوا ويحكموا على ما انتهى إليه درسهم وبحثهم. لم أفكر قط فى أن أقدم لهم مذكرة معينة، وإنما كنت أشرح الدرس وأحيل على مراجعه الميسرة لهم - وما كان أقلها - وكم وددت أن لو عرفوا لغة أجنبية تكمل درسهم وبحثهم العربى، ومن بينهم من أتيحت له فرصة بعثة

إلى العالم الخارجى، فتمكن من الإنجليزية أو الفرنسية، واكتسب منهجًا ونظرة جديدة.

ولسوء الحظ أنه لم يقدر لهذه الكليات الثلاث أن تعمر طويلاً فى وضعها الخاص، كما قال أرسطو : يجب أن نعيش قبل أن نتفلسف «ولو فتحت أبواب الحياة فى يسر أمام خريجيها مافكر أحد فى تحويل التعليم الأزهرى العالى إلى الشكل الجامعى، وللفظ الجامعة بريق، وفى شهاداتها مايسير سُبل العيش، ويفى بمقتضيات الحياة، فتحولت الكليات الأزهرية إلى «الجامعة الأزهرية»، التى تنمو وتتسع على مر الزمن، وتحاول أن تستكمل التخصصات العلمية جميعها، وهى ثمرة من ثمار العهد الحاضر، ففيها المسميات القديمة التى تغير مدلولها : ككلية اللغة العربية، وكلية الشريعة، وفيها كليات حديثة : ككلية الطب، وكلية العلوم، وكما حدث بالنسبة للمعاهد الدينية، لم تقف الجامعة الأزهرية عند العاصمة الكبرى، بل بدأت تنشئ فروعًا لها فى المدن الأخرى، وفى تعدد سبل العلم خير وبركة، ولكننى أتساءل : هل لاحظنا فى الجامعة الأزهرية الحديثة الربط الوثيق بين القديم والحديث، على النحو الذى قامت عليه فكرة تطوير التعليم الأزهرى فى الستين سنة الأولى من هذا القرن؟ وأظننا نتفق جميعًا على ضرورة هذا الربط، وفى وسعنا أن نحققه، وبخاصة فى الكليات التى تتصل اتصالا وثيقًا بالثقافة الإسلامية.

* * *

جامعة الأزهر

خاتمة مطاف طويل لتطوير التعليم الأزهرى، بدأ فى أوائل هذا القرن، ومر بعدة مراحل، أولها إنشاء المعاهد الدينية التى تقوم على ثلاث مراحل: ابتدائية وثانوية وعالية ومدة كل واحدة منها أربع سنوات، وتختم بعد ثلاث عشرة سنة بالشهادة العالية، ثم تلتها فى الثلاثينيات مرحلة ثانية، اشتملت على ثلاث كليات متخصصة: هى أصول الدين والشريعة، واللغة العربية، ويلحق بها الحاصلون على الثانوية الأزهرية، ومدة الدراسة فى كل كلية أربع سنوات، يحصل الطالب بعدها على الشهادة العالمية، وله أن يتابع الدرس بعد هذا لكى يحصل على درجة الدكتوراة.

ومن خريجى هذه الكليات من أوفد إلى الخارج، لاستكمال درسه وبحثه، ودراسة لغة أجنبية تفتح أمامه آفاق البحث العالمى.

ثم استمر الأمر على هذا الشأن زمنًا، وعدت الكليات الثلاث ممثلة للتعليم الأزهرى التقليدى فى أرقى صوره، وكان يمكن أن تسمى جامعة، وفى الستينيات أثير الموضوع مرة أخرى، وأريد بالجامعة مدلولها الحديث، فشملت الدراسات الطبية، والهندسية، والزراعية، والتجارية، والإقتصادية، وأنشئت جامعة الأزهر على أساس أوسع كثيرًا مما أريد فى النصف الأول من هذا القرن، وضمت جامعة رابعة إلى جامعات القاهرة الثلاث. وقصد بها أساسًا أن تتغذى بخريجى المعاهد الدينية، وهم فى كثرة متزايدة عامًا بعد عام، نظرًا للتوسع المطرد فى إنشاء هذه المعاهد. وفى هذا ما يزيد

مشكلة الثنائية فى التعليم العام تعقيدًا، ولابد لنا أن نتخلص منها، لاسيما وأن المعاهد الدينية أخذت تدنو ما استطاعت من نظم التعليم فى المدارس الأميرية والأهلية، أو الخاصة كما تسمى الآن.

ولا ننكر مطلقًا أن يدرس الطب فى جامعة الأزهر، كما يدرس فى جامعة القاهرة، إن توافرت لـه معامله ومستشفياته، وكـل جوانبـه التطبيقيـة والعملية، ولكن نتساءل حقا: هل تكفى اللغة الوطنية وحدها فى الدرس المتخصص فى عالمنا الحاضر؟ والبحث فيه على قدم وساق شرقًا وغربًا، والابتكار والاختراع متلاحق ولا نريد لشبابنا مطلقًا أن يكون فيهم أطباء من الدرجة الثانية وآخرون من الدرجة الأولى، وفى قيام جامعة الأزهر ما يلح على ضرورة الفصل فى سياسة توحيد التعليم العام، ولابد للناشئ المصرى أن يربط حاضره بماضيه، وأن يعد إعدادًا كاملاً للعيش فى عصره.

وقد لوحظ أخيـرًا أن عددًا غـير قليل، من طـلاب بعض الكليات النظرية فى الجامعة الأزهرية، يتسابقون إلى كلية دار العلوم التى فتحت أبوابها لعدد منهم.

ولـو أتيح هـذا التحويـل لكليات أخـرى لتسابق عليهـا كثيرون، ولو وحد التعليم العام منذ البداية، لسلك كل شاب وشابة الطريق الذى يلائمه. وباختصار، فى نظمنا التعليمية ثغرات نغفلها أو نتغافلها، وندعها تكبر وتتسع، بحيث تصبح وقـد اتسع فيهـا الخـرق عـلى الـرافـع، والإدارة القوية والرأى الواضح كفيلان بأن يعالجا كل نقص.

ويزيد الأمر دقة أن جامعة الأزهر تتوسع فى إنشاء كلياتها فى العواصم والمدن الكبرى ولم تقف عند القاهرة، وتزداد هذه الكليات عامًا بعد عام وأظن أنها وصلت اليوم إلى ما يزيد عن سبعين كلية وهنا نتساءل: هل يراد

لكل مجموعة من هذه الكليات أن تكون نواة لجامعة أزهرية إلى جانب جامعة أسيوط أو الزقازيق؟ وكأنا بهذا نمد مشكلة الثنائية فى التعليم العام إلى التعليم العالى، وأخشى ما أخشاه أن ينتهى بنا هذا إلى طائفية ثقافية ونحن نعيش فى عصر يمقت الطائفية على اختلاف صورها.

ومن أغرب ما يلاحظ أن جامعاتنا الأميرية كلها تخضع للدولة، وتغذى من ميزانيتها العامة، وجامعة الأزهر فى مقرها الرئيسى وفى فروعها المنتشرة فى الأقاليم تتغذى هى الأخرى من المنبع نفسه، وكم شكونا فى الربع الأول من هذا القرن، من طائفية لوحظت بين أبناء دار العلوم وخريجى مدرسة المعلمين العليا، وفى هذا الماضى القريب ما يدعونا لأن نقف وقفة حاسمة إزاء ثنائية التعليم فى مراحله المختلفة.

* * *

الجامعة الأمريكية

ثمرة من ثمار ماضٍ بعيد يتلخص فى أن يكون لبعض الجاليات الأجنبية مدارس تنشر لغتها، وترفع راية ثقافتها، فأسست مدارس فرنسية، وأخرى إنجليزية، أو أمريكية، وثالثة ألمانية، وقد وقفت هذه المدارس عند التعليم العام فى رياض الأطفال والمرحلة الإبتدائية والثانوية، وكانت الجانب الهام فى التعليم الخاص، ولم تقتصر على الأجانب بل فتحت الباب للمصريين، وأسهمت إسهامًا واضحًا فى تكوين شباب يجيدون لغة أجنبية أو أكثر، ولم يجاوز نطاق التعليم العام إلا مدرسة الحقوق الفرنسية التى تخرج فيها بعض شباب القانونيين، وعاشت إلى جانب مدرسة الحقوق الملكية، ولكن لم يلبث التعليم الجامعى المصرى أن طغى عليها فقدت أهدافها، وبخاصة بعد إلغاء المحاكم المختلطة، ومن بين هذه المدارس ما تشرف عليه هيئات دينية كمدارس القلب المقدس أو مدارس العائلة المقدسة، وفى عام ١٩٥٣ رأت وزارة التربية والتعليم أن تتوسع فى مراقبتها وإشرافها على هذه المدارس، ولم تخل هذه الرقابة من تضييق وتحكم أحيانًا كان له أثره فى آداء الرسالة التى اضطلعت بها مدارس اللغات جميعها، وأذكر أن حروب عام ١٩٥٦ أفضت إلى إغلاق مدارس الليسيه وكان الفرنسيون يعتقدون أن لهم فى مصر رسالة ثقافية يضعونها فوق كل إعتبار، ولا أزال أذكر حديثًا دار بينى وبين المسيو «فور» المسئول عن المعاهد التعليمية الفرنسية فى البلاد العربية فقد قرر لى فى وضوح أن الحكومة

الفرنسية مستعدة أن تتنازل عن كل شيء اللهم إلا عن رسالتها التعليمية، وكان من نتاج هذا التضييق أنه أبقى على مدرسة واحدة لليسيه فى القاهرة، ولم يسمح لقيام المدرسة الثانية التى كانت موجودة من قبل فى مصر الجديدة.

وكان من نتائج هذا أن تعليم اللغات الأجنبية - وبخاصة العالمية منها كالفرنسية والإنجليزية والألمانية - ابتلى بضعف ملحوظ فى الثلاثين سنة الأخيرة، إن فى المدارس الأميرية أو فى المدارس الأهليه، وما أحوجنا أن نعيد النظر فى هذا وأن نستعيد ما كان من ماض ملحوظ فى معرفة اللغات الأجنبية.

وكانت الجامعة الأمريكية فى نشأتها واحدة من هذه المدارس الثانوية، وعنيت خاصة ببعض الأجانب المقيمين فى مصر، أو الوافدين إليها من بعض البلاد العربية، أو الإفريقية، وحامت حولها شبهة دعايات تبشيرية لم يقم أى دليل عليها، ومن حسن حظها أنه قام على أمرها مديرون ورؤساء طال مكثهم وتمكنوا من أن يحظوا بثقة الآباء وزملائهم من المربين الآخرين، وثقة المسئولين فى وزارة التربية والتعليم بوجة خاص، ومن بين هؤلاء الرؤساء من عاد إلى مصر سفيرًا بعد أن كان مربيًا ومسئولاً عن الجامعة الأمريكية، وحاولت هذه الجامعة أن تسمو شيئًا فشيئًا إلى مرحلة التعليم العالى.

وترجع صلتى بهذه الجامعة إلى نحو أربعين سنة أو يزيد، وعنيت بقسم خاص من أقسامها وهو قسم الخدمة العامة الذى كان ينظم سلسلة محاضرات سنوية أسهمت إسهامًا كبيرًا فى معالجة كثير من مشاكلنا الإجتماعية والثقافية، ومن حسن حظ هذا القسم أن قام على أمره جامعى ومواطن صادق هو الدكتور حنا رزق الذى انتهى به المطاف أن أصبح

أخيرًا مديرًا للجامعة، وقد نشر بعض هذه المحاضرات، وما أجدرها أن تجمع وتقدم لشباب اليوم الذى لا يكاد يعرف عنها شيئًا، ولست أدرى هل يستطيع قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية أن يستعيد نشاطه مرة أخرى، أو أنه بلى بما بليت به هيئات علمية أخرى كان لها إلى جانب نشاطها الأكاديمى نشاط ثقافى وجماهيرى تلاشى على مر الزمن؟

ومما يبعث على الأمل أن الجامعات الإقليمية بدأت تتنافس فى نشاط ثقافى، فعقدت ندوات ومؤتمرات متلاحقة عامًا بعد عام، وتعد هذه اللقاءات منارة هداية وإرشاد فى البلاد كلها، ولا أشك فى أن وزارة الثقافة تعاون هذا وتعززه ما وسعها.

والإنجليزية هى لغة التعليم الأساسية فى الجامعة الأمريكية، بها تدرس العلوم النظرية، من أدب ونقد أو اقتصاد وسياسة، ففتحت صدرها - مؤخرا - لكثير من شبابنا الذى ربى فى معاهد أجنبية بالخارج، وعز عليه أن يلتحق بالجامعات المصرية، هذا إلى أن الحياة الاقتصادية وظروف الانفتاح قامت فى أحوال كثيرة على تعاون بين مصريين وأجانب، واحتاجت الشركات الاستثمارية التى تقوم على رأس مال مشترك إلى من يسهمون فى نشاطها من شباب وشابات مر أغلبهم بالجامعة الأمريكية، وبذا زادت نسبة المصريين فى هذه الجامعة زيادة ملحوظة واتضح دورها فى النشاط الثقافى والتعليمى، مما أدى إلى الاعتراف بشهاداتها، وتحقيق تعاون بينها وبين الجامعات المصرية.

وتتم اليوم دراسات متخصصة للماجستير والدكتوراه بالتعاون بين الجامعة الأمريكية والجامعات المصرية، وأعتقد أنها أحسنت فى بعدها عن الدراسات العملية مع طب وهندسة، وتكفيها رسالتها التى تضطلع بها اليوم، وتسد بابًا ملحوظًا فى الدراسات الإنسانية، ومتطلبات الحياة الاقتصادية بوجه عام.

الأجيال الجامعية المتعاقبة

الدرس الجامعى حب وتعلق، تخصص وتعمق، ويقوم خاصة على صلة وثيقة بين الأستاذ وتلاميذه، وكانت هذه الصلة فى التعليم الأزهرى طويلة ووثيقة، وخَرَّجت من خرجت من تلاميذ، هم امتداد صادق لأساتذتهم، ولأمر ما رفعت فرنسا سن المعاش للأستاذ الجامعى لكى تطول مدة عطائه، وتتوثق الصلة بينه وبين من يعدهم خلفًا له، ولم يكن لشيوخ الأزهر قديمًا سن معاش محدد، وليس معنى التلمذة والأستاذية مجرد المحاكاة والتقليد، بل القصد الأول فى هذا المضمار هو إعداد جيل من الباحثين والدارسين الجامعيين، لهم شخصيتهم وقدرتهم على العطاء والابتكار، وأذكر أنى قرأت يومًا تصديرًا لأستاذ فرنسى جليل يقدم به بحثًا لأحد تلاميذه، ويقرر فيه أنه أسعده أن يخالفه تلميذه فى بعض ما انتهى إليه من آراء، وأنه أحسن التدليل على وجهة نظره، وهكذا يكون الأستاذ الكبير، والتلميذ صاحب الرأى المستقل.

ولابد للصلة العلمية من دعامة روحية، تقرب التلميذ من أستاذه، فيستودعه سره، ويشكو إليه بعض آلامه، ويفيد منه فى الدرس وخارجه، ولا أزال أذكر كلمة لعاطف بركات، قالها يومًا لجمع من أبناء مدرسة القضاء الشرعى، معلنًا أنه يأمل أن يكون منهم بمثابة شيخ الطريقة من مريديه، وهكذا كان عاطف بين عدد ممن اقتربوا منه برغم ما كان يبدو عليه من شدة أحيانًا.

وفى بدء حياتنا الجامعية المعاصرة، حظينا بأساتذة من هذا الطراز، أمثال طه حسين، وعلى مشرفة، ومصطفى عبد الرازق، منهم من كان يقسو أحيانًا، ولكن صدورهم جميعًا كانت فسيحة للأخذ والرد، والسؤال والإستفسار، وبيوتهم كانت مفتوحة لتلاميذهم الذين كانوا يترددون عليهم دون انقطاع، وكانوا يؤمنون بأن رسالتهم لا تقف عند إعطاء الدرس، أو شرح النص، أو إلقاء المحاضرة، بل كان همهم الأكبر أن يكوّنوا ورثة وخلفاء. ورحم الله مصطفى عبد الرازق الذى كان نموذجًا يُحتذى به فى هذا المجال، لقد كان حقًا شيخ مدرسه، وكبير أسرة متشعبة، أحبه تلاميذه، وسعدوا دائمًا بلقائه، وأفادوا من نصحه وتوجيهه، وكم وَكل إليهم أعمالاً كان يحب أن يتولاها، فأعطاهم نصوصًا مخطوطة لكى يقوموا بتحقيقها ونشرها، وفتح أمامهم أبواب دراسات اضطلعوا بها، ولقد خلف فعلاً مدرسة غزيرة العطاء متنوعة الإنتاج.

والسلك الجامعى نفسه يدعو إلى الارتباط والاتصال، فيبدأ الجامعى حياته طالبًا وإذا ما شاء أن يقف نفسه على الدرس والبحث، كان لابد له أن يمر بمراحل مختلفة، هى إعداد للماجستير تحت إشراف أستاذ يطمئن إليه فيوجهه فى عمله بعناية، دون أن يقوم مقامه فى البحث والتأليف، وإذا ما حصل على درجة الماجستير بدأ يعد دراسة للدكتوراه تحت إشراف أستاذه السابق، أو يضطر إلى الالتجاء إلى أستاذ آخر، ومتوسط كل واحدة من هذه الدراسات لا يقل عن أربع سنوات، قد تمتد إلى ثمان أو أكثر، وترجع الرغبة فى قصر مدتها عادة إلى أنها ذات صلة بالدرجات المالية، وليتنا نفصل بين هذين الجانبين، لكى نوفر للبحث الزمن الملائم والكافى، وكثيرًا ما حال سن المعاش دون استمرار الأستاذ فى أداء واجبه، ومتابعة عطائه، وقد فكرنا من قبل فى رفع هذه السن دون جدوى، واكتفينا

أخيرًا بما استحدثناه من نظام «الأستاذ غير المتفرغ» وليتنا أفدنا من هذا الإفادة المرجوة، لأن العمل فى الخارج حرمنا من كثيرين من شيوخنا الذين كنا نعول عليهم فى استكمال صرح البنيان الجامعى.

ونتساءل الآن: هل أعددنا، فى الثلاثين سنة الأخيرة، الأجيال الجامعية التى ننشدها؟ وهل هرم الكادر الجامعى مستكمل كل عناصره فى كلياتنا ومعاهدنا؟ أظننا لا نتردد فى أن نجيب بالسلب، فهناك أقسام، فى كلياتنا النظرية على الأقل، تفتقد الأستاذ، وإن وجدته، خلا الصف من بعده ولم يبق إلى جانبه إلا بعض معيدين أو مدرسين مساعدين، وهل نستطيع حقًا أن نتحدث عن تعليم جامعى يعتمد أساسًا على المعيدين؟ ومن المقارنات ما يؤلم ويحزن، فهناك أقسام وكليات فى الجامعات العربية عامرة بصفوة من الأساتذة المصريين، الذين كنا نود أن يستمر عطاؤهم فى بلدهم، وأن يكملوا رسالتهم بإعداد من يصلحوا أن يكونوا خلفًا لهم، ولا سبيل إلى تعليم جامعى صحيح إلا إن استكمل كل وسائله ومقوماته.

جامعيون نعمت بصحبتهم

وهم كثيرون، وأحرص على أن أقف قليلاً عند أربعة منهم.

وأولهم : لطفى السيد الذى عد بحق أستاذ الجيل، وقد استحق هذه الأستاذية منذ أوائل هذا القرن بآرائه وأفعاله.. بدعواته ومشروعاته، فوجه الرأى العام نحو التعليم الحديث فى صحيفة «الجريدة». وكان على صلة وثيقة بالجامعة المصرية القديمة، ويوم أن قامت الحرب العالمية الأولى حرص المستعمر على أن يضعه تحت الرقابة المباشرة، فوكل إليه الاشراف على «دار الكتب» وهنا أيضا بدا «لطفى السيد» أستاذًا ومعلمًا، اتجه نحو المعلم الأول أو «مولاه أرسطو» كما كان يسميه، وترجم له بعض كتبه عن اللغة الفرنسية، فوجه النظر إلى علاقات ثقافية أغفلناها، ولم يغفلها العرب والمسلمون من قبل، وكان يرى بحق أن الثقافة عالمية، وعلى كل حضارة أن تفيد من تجارب الآخرين، وأن تضيف إليها ما تضيف. ولا شك فى أن تفاؤله الشديد قد شجعه على مواجهة أمور ربما كان من الصعب التعرض لها.. ولا غرابة فهو صاحب فكرة «الأجيال الثلاثة»، إذ كان يرى أن أمة ناهضة لو اتجهت نحو النهوض فى صدق لكنتها ثلاثة أجيال متلاحقة لتحقيق كل ماتنشده، ولطفى السيد صاحب «الجريدة» وتلميذ أرسطو والمشرف على الجامعة المصرية القديمة كان لابد له أن يضطلع برسالته فى الجامعة المصرية الحديثة، فتولى أمر جامعة «فؤاد الأول» وحرص على أن يقيم دعائمها على أسس ثلاثة رئيسية.

أولها : حرية البحث الكاملة المعتمدة على العقل والمنطق، وثانيها : استقلال تام للجامعة حماية لهذه الحرية، وتمكينًا للباحثين من متابعة السير إلى النهاية، وثالثها : التعاون الثقافى بين الجامعة المصرية الشابة والجامعات العالمية الكبرى، فأفسح السبيل لكثير من كبار الأساتذة الغربيين لكى يسهموا فى ميدان البحث والدرس فى الكليات الجامعية الأولى التى قامت عليها جامعة فؤاد، وهى : «كلية الآداب، وكلية الحقوق، وكلية الطب، وكلية العلوم»، ولاقى فى سبيل استقلال الجامعة مالاقى، وقاوم الاعتداءات التى لم يتردد إزاءها فى أن يستقيل من وظيفته كمدير للجامعة، وعاش كبار الجامعيين تحت كنف داخل الجامعة وخارجها.

وسبق لى أن أشرت إلى أول لقاء بينى وبينه عام خمس وثلاثين، يوم أن عدت من بعثتى، ووكل إلى التدريس فى كلية الآداب، ومنذ هذا اللقاء توقفت علاقاتنا عامًا بعد عام. وشاء القدر أن أصحبه فى رحلة بحرية عام ست وثلاثين على ظهر الباخرة «الكوثر» من الاسكندرية إلى «مرسيليا» وكانت رحلة ما أمتعها، ومن أغلى ذكرياتى التى مررت بها، فقد جمعت هذه الباخرة بينى وبين لطفى السيد وعلى ماهر وطلعت حرب، وكنا نتناول غذاءنا وعشاءنا سويا، ونتذاكر فى شئون وطننا، وكم أفدت من ملاحظات هؤلاء الشيوخ وتجربتهم، وقدر للباخرة أن تتوقف فى الطريق للإصلاح فأفسحت لى مجال الحديث والأخذ والرد عن هؤلاء الشيوخ الأقطاب، ويوم أن وصلنا إلى «مرسيليا» كنت أتوقع أن أسعد بصحبة «لطفى السيد» فى رحلته إلى باريس، ولكنه قرر أن تنتهى هذه الرحلة عند «مرسيليا» وبقى بضعة أيام فى انتظار عودة السفينة التى حضر عليها، ورأيت من اللائق أن أبقى معه طوال هذه المدة فزرت معه مازرنا من كنائس وأماكن أثرية فى عاصمة فرنسا الجنوبية، وأكدت هذه الرحلة العابرة علاقتنا، وكنا

نلتقى فى القاهرة فى مبنى الجامعة أو فى نادى محمد على الذى كان يعتبر زعيمه الأول، كما نلتقى فى الإسكندرية فى فندق «سيسل» الذى كان يقضى فيه شهرين فى كل صيف، وكم كانت جلساته فى هذا الفندق عامرة بالشباب والشيوخ.

وللطفى السيد أياد كثيرة على جامعة القاهرة، وأخصّ بالذكر منها فتحه الباب للفتاة المصرية التى أصبحت اليوم تدرس فى الكليات العملية كما تدرس فى الكليات النظرية، وأصبح لدينا طبيبات ومهندسات إلى جانب الأطباء والمهندسين، وكنت أتردد بعض الشىء فى أن تلتحق ابنتى الكبرى بكلية الطب التى اتجهت إليها، ورغبت فيها، لا سدًّا للباب عليها، ولكن محاولة لتخفيف أعبائها، لأنى أعرف مسئوليات الطبيب ودقة رسالته، وكان لطفى السيد بين آخرين من مؤيديها فيما اتجهت إليه، ولى معه رحمه الله مواقف مختلفة فى شئوننا العامة والسياسية، وكم عولت على رأيه واعتددت بمشورته، وأكتفى بأن أشير إلى موقف واحد رأى أن يأخذ رأيى فيه كما عودته أن أستشيره فى كل ما يقع لى، وهذا الموقف هو أنه عرضت عليه رياسة الجمهورية بعد استقالة «محمد نجيب» وإيمانًا منه بأنى كنت حينذاك قريبًا كل القرب ممن بيدهم السلطة شاء أن يستأنس برأيى، ولم أتردد فى أن أصارحه بأن من الخير أن يترك لرجال الثورة ميادينهم مفتوحة لكى يملئوها كما يشاءون.

وقد أخذ برأيى واعتذر دون تردد، ولا أتحدث عن لطفى السيد المجمعى فتلك ناحية جديرة بشرح وتفصيل.

* * *

وثانيهم : مصطفى عبد الرازق الذى لقيته لأول مرة عام اثنين وثلاثين وتسعمائة وألف بباريس فقد شاء أن يدعو أبناءه من مبعوثى كلية الآداب

إلى غداء دفعة كرمه إلى أن يضمنى إليه وتلك يد جديرة بأمثال «مصطفى عبد الرازق» وبعد إتمام بعثتى قمت بالتدريس فى كلية الآداب، وفى قسم الفلسفة الذى كان يرأسه «مصطفى عبد الرازق» وهنا قامت علاقة وثيقة بيننا لم تغيرها أحداث الدهر فى شىء فقد كنت عضوًا وفديا فى مجلس الشيوخ، وكانت له صلاته الوثيقة بحزب الأحرار الدستوريين، وأشهد بأنه لم يكن لذلك أى أثر على زمالتنا ومودتنا، وتعاونا بصدق فى خدمة الدرس الفلسفى وبخاصة الفكر الإسلامى، ويعد مصطفى عبدالرازق بحق الأستاذ الأول لهذه الفلسفة فى تاريخنا المعاصر.

كان رئيس مدرسة كما أشرت من قبل، وكون جيلاً من باحثين ودارسين عمرت بهم كلياتنا الجامعية، وأفادت منهم الجامعات العربية الناشئة فى الأقطار الأخرى حرص على أن يعود أبناءه - ومنهم من لم ير بالدرس الأزهرى - على دراسة المتون والنصوص وفى ذلك مافيه من صقل، ومحاولة استخلاص للمعانى فى مدلولاتها الصحيحة، واستطاع كثير من تلاميذه - فى ضوء هذا - أن يكون له أسلوب عربى سليم بجانب تمكنه من لغة أجنبية، وماكان أحبه إلى تلاميذه، كانوا يعدونه جميعًا أباهم الروحى، ولا أشك فى أنه كان يعاونهم مادعت إلى ذلك حاجة، وكل أصدقائه يعرفون أن شئون الدنيا كانت هينة عليه، وأذكر أنهاألمت بأحد زملائنا ملمة، وفكرت هيئة التدريس بكلية الآداب فى أن تقف إلى جانبه، وبدأنا نتذاكر سويا فيما ينبغى أن نقدمه، واتفقنا على نسبة مئوية من مرتبنا الشهرى ولم يدهشنى أن يهمس مصطفى عبد الرازق فى أذنى قائلاً : هل تعرف كم مرتبى ؟ وكنت على يقين من أنه لا يعنى بهذه الأمور. وواضح أنه كان يسأل عن مرتبه لكى يقول بنسبة محترمة.

اشتركنا فى الدرس، وفى مناقشة الرسائل الجامعية، وكنا دائما على اتفاق

تام، وأريد به فى أخريات حياته أن يرشح لمشيخة الجامع الأزهر، وكان القانون ينص بأن الترشيح مقصور على هيئة كبار العلماء، ولم يكن مصطفى عبد الرازق واحدًا منهم، وقصد إلى التعديل القانون لكى يفتح له الباب، وكنت عضوًا فى لجنة مجلس الشيوخ التى عرض عليها هذا التعديل، وطوال حياتى البرلمانية كنت أرفض التعديلات القانونية المصنوعة التى تدفع إليها غاية خاصة، فلم أقر التعديل المقترح، برغم إقرار أغلبية اللجنة له، وأعترف بأن هذا لم يؤثر بشىء فى صلتى بمصطفى عبد الرازق، بل لقد كنت على موعد للغداء معه فى بيته فى هذا اليوم نفسه، ولم يعرض الصديق الكريم لهذا الموضوع بحال، ولعله قال لنفسه فيما بعد : ليت اللجنة لم تقر التعديل بعد أن عانى فى مشيخة الأزهر ما عانى.

هذا هو «مصطفى عبد الرازق» الكريم والوفى.

* * *

وثالثهم: طه حسين الذى عشت معه فى معركة الشعر الجاهلى قبل سفرى إلى أوربا دون أن أتصل به أو ألقاه، وكنت أشعر منذ ذلك التاريخ أنه قصد بحديثه عن الشعر الجاهلى أن يوجه الأنظار إلى النقد والتمحيص، وأن يطبق فى ميدان الأدب الشك الذى طبقه ديكارت فى ميدان الفكر والنظر.

وجاء لقاؤنا لأول مرة فى «هولندا» حيث عقد مؤتمر للمستشرقين عام اثنين وثلاثين، وحرصت على أن أشترك فيه، وعلى مائدة الغداء فى أول يوم من أيام هذا المؤتمر جلست إلى جانب طه حسين، وبدأ يحدثنى باللغة الفرنسية، وأحسست بأنه قصد إلى اختبار لدرجة معرفتى بهذه اللغة، وقد عشت معها من قبل نحو ثلاث سنوات، وأحسست بأنه اطمأن إلى مارغب فى معرفته، وبعد أعوام ثلاثة التقينا فى كلية الآداب، وكان عميدها الذى

رسم لنفسه صورة من الدرس الجامعي ما أحوجنا أن نستعيدها كاملة، وأن نأخذ أنفسنا بها، درس يقوم على الطالب والأستاذ معا، وقد كان طه حسين يرى بأن طلاب الدرس الجامعي ينبغي أن يثقفوا تثقيفًا وافيًا في مرحلة التعليم العام، وقد وجه النظر إلى هذا كما أشرت من قبل في «إصلاح التعليم الثانوي»، بقدر حبه لتلاميذه كان جادًا كل الجد في محاسبتهم على أعمالهم، ولم يتردد قط في مكافأة المحسن منهم وبهذا حقق الطرف الثاني من قضية التعليم الجامعي وهو طرف الأستاذ الذي يعطي ويناقش.. ويعترض ويحلل.. ويطلب إلى طلابه وتلاميذه أن يناقشوه ويجادلوه، وكون بهذا جيلًا من الجامعيين الذين كانت لهم أقدارهم في تاريخ حياتنا الجامعية طوال نصف القرن الماضي، كان أستاذ الأدب العربي الذي أراد به أن يكون أدبًا سهلًا صافيًا واضحًا معبرًا رسم لذلك النموذج الحي فيما كتب وألف.. أو فيما درس وحاضر، وكانت محاضراته العامة حدثًا علميًا تشد إليه الرحال من مختلف المدن المصرية، بل من بعض البلاد العربية.. ولم تزخر قاعة «إيورت» بالجامعة الأمريكية بجمهورها يومًا مثلما زخرت بعشاق طه حسين، تخيرت من أعوانه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب من أطمأنت نفسه إليه، وجمع أسرة وقيادة كانت من أحسن القيادات، وإلى جانب هذا الجهد الجامعي الذي أقامه على دعائم من الماضي والحاضر حاول أن يربط الجامعة المصرية بالهيئات العلمية في العالم شرقًا وغربًا، فحرص على أن يشترك في مؤتمرات المستشرقين، وأن يشترك بعض زملائه من كبار الأساتذة والباحثين، وقد أراد بي يومًا أن أشترك في مؤتمر نظمته اليونسكو في الهند عام واحد وخمسين لبحث القضية التالية «الثقافة بين الشرق والغرب» وقد أفدت من هذه التجربة فائدة عظمى ربطتني بأوساط ثقافية مختلفة في أوربا وفي شرق آسيا وإلى جانب عنايته بالحاضر ومشاكله لم

يغفل عن الماضى فكان من العاملين على إحياء التراث أدبًا وعلمًا وفلسفة، فقاد حركة إحياء لأدب المعرى بمناسبة ذكراه.. واشترك معى فى إخراج موسوعة ابن سينا الكبرى، وهى كتاب الشفاء ليكون إسهاما من جانب مصر فى الذكرى الألفية للفيلسوف الكبير، ولم يفته أن يحدد الجزء الأول من هذا الكتاب وعنوانه «المدخل» الذى طبع فى المطابع الأميرية، وعرض فى مهرجان بغداد فى العام التالى بمناسبة هذه الذكرى.. ويوم أن كان وزيرًا للمعارف وجه بعض البعوث للبحث عن تراثنا المنسى فى مدن الخليج، واهتدينا فى اليمن إلى مخطوط له شأنه فى تاريخ الفكر المعتزلى وهو أجزاء من كتاب «المغنى» للقاضى عبد الجبار أمام المعتزلة المتأخرين.. وأراد بى مرة أخرى أن أقود حركة هذا الإحياء.. ويوم أن قصرت وزارة المعارف عن القيام بواجبها فى هذا المضمار استطاع أن يستعين بزميل كريم آخر هو المرحوم «أحمد حسن الباقورى» الذى كان وزيرًا للأوقاف حينذاك.. ولم يتردد فى أن يقف من خيراتها مبلغًا لهذا الإحياء.. ونأسف أنا لم نضع يدنا على كتاب المغنى كاملًا، ولم نحصل فيه على أصول متعددة ومع ذلك حرصنا على إخراجه لأنه يلقى أضواء كثيرة على الفكر المعتزلى، ولانزال نأمل فى أن نجد بقايا لهذا التراث المعتزلى العظيم. ومن حسن الحظ أن إخواننا فى اليمن السعيد يحاولون اليوم بالتعاون مع مصر إخراج الكتاب القيم فى صورته الكاملة.

هذا هو «طه حسين» الجامعى أما طه حسين المجمعى فذلك موضوع آخر جدير بأن يعالج فى استقلال.

* * *

ورابعهم : أحمد أمين، وصلتى به أسبق وأقدم، تتلمذت له فى أخريات العقد الثانى من هذا القرن بمدرسة القضاء الشرعى، وماكان أجداها من

تلمذة، أفدت منها ما أفدت علمًا وسلوكًا، وكان للسلوك فى رأى أحمد أمين شأن خاص لا يقل عن شأن العلم والمعرفة، ولا غرابة فقد كان أستاذًا للأخلاق، تتلمذ لعاطف بركات كلنا يعرف ما كان عليه عاطف بركات من حزم وقيادة جادة حكيمة، وبدا لنا جميعًا أن أحمد أمين من أقرب تلاميذه إليه.. وقد حببه فى الثقافة الغربية بقدر تعمقه فى الثقافة الإسلامية، ودفعه لأن يتعلم الإنجليزية فى سن متقدمة وكان أحمد أمين باختصار خلال السنوات التى قضيتها فى مدرسة القضاء المثل الذى حاولت ما استطعت أن أحتذيه، ولازلت أذكر مقالاً له نشر فى إحدى المجلات بعنوان «سياحتان فى مكتبتين» ووجه النظر فيه بخاصة إلى حرص الغربيين على الدقة وحسن الترتيب وسلامة العرض، فى حين أن المكتبة العربية أشبه ماتكون بمخزن لكتب منها إلى أى شىء آخر، وما كان يتردد أحمد أمين فى أن يوجه أنظارنا نحو المأكل والملبس، وآداب اللياقة فى التعامل مع الناس، ولم أره ثانية إلا عام اثنين وثلاثين وتسعمائة وألف فى باريس هذه المرة، وأسعدنى أنه قبل دعوتى إلى طعام غداء فى المنزل الذى كنت أقيم فيه، وكم أسعده ما أحس به فى هذا المنزل من هدوء وسكينة، ملاحظا أن فى هذا مايعينني على درسى وبحثى، ويوم أن قمت بالتدريس فى كلية الآداب عام خمس وثلاثين تجددت صلتنا مرة أخرى، وأصبحت زميلاً لأحمد أمين وإن لم أنس أستاذيته بحال، وراقنى مشروعه فى سبيل خدمة الحياة الإسلامية الفكرية والأدبية والسياسية بالتعاون مع زميلين كريمين هما طه حسين وعبد الحميد العبادى.

وكان أساس هذا المشروع أن يقوم أحمد أمين بالتأريخ للفكر الإسلامى.. ويتولى طه حسين التأريخ للأدب العربى ويضطلع «عبد الحميد العبادى» بالجانب السياسى، وليت هؤلاء الثلاثة تابعوا الشوط خطوة

بخطوة ولكن «تقدرون وتضحك الأقدار» فحالت أعباء عمادة الكلية دون طه ومتابعة السير، وعجلت المنية بعبد الحميد العبادى فلم تتح له فرصة العطاء المتصل، أما أحمد أمين فقد أخرج للطلاب والباحثين سلسلة من كتب فى فجر الإسلام وضحاه وظهره لاتزال مرجعًا يقول عليه، وكم قدرت الجهد الذى بذله فى هذا المضمار وأنا وثيق الصلة بكثير مما وقف عليه من مصادر، وما اعتمد عليه من مؤلفات، قضت عليه بأن يلزم داره فى ساعات طويلة، وأن يكب على القراءة والكتابة بانتظام، وكان لذلك أثره على نظره وصحته.

وأبت الحياة النيابية إلا أن تبعدنى عن كلية الآداب، ولكنها لم تحرمنى من زمالة أخرى لأحمد أمين فى لجنة التأليف والترجمة والنشر، وهذا عمل جليل آخر كان أحمد أمين رائده ومغذيه بانتظام، وما كان أشبه هذه اللجنة بوزارة أهلية للثقافة جمعت بين خيار المثقفين الذين حرصوا على أن يعطوا تأليفًا وترجمة، وأن يغذوا الفكر المعاصر بغذاء متصل فى كتبهم ومؤلفاتهم وضموا إليها صحفًا أسبوعية أو نصف شهرية كمجلة «الرسالة» ومجلة «الثقافة» وسيكون لنا حديث أطول وأوسع عن هذه اللجنة.

ومن حسن حظى أنى نعمت عام ست وأربعين بزمالة أخرى لأحمد أمين فى «مجمع اللغة العربية» وهو الذى استقبلنى فيه مع تسعة آخرين من الأعضاء الجدد سماهم جميعًا «العشرة الطيبة» وترجع هذه التسمية إليه فلم يقل بها أحد من قبل فى استقبال مجمعيين آخرين، والحديث عن «أحمد أمين» المجمعى أفسح وأوسع من أن تفى به سطور قليلة فى هذه المناسبة.

* * *